كتاب جديد

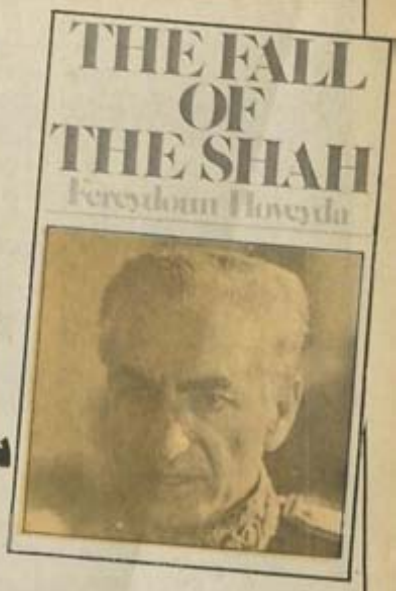

قصة سقوط الشاه

٣

أكتوبر

« منذ بداية السبعينات تحول نظام الحكم الشاهانى من ملكية مستنيرة كان يمكن أن تتطور فتصبح ملكية دمقراطية إلى ملكية شديدة الوطأة فى استبدادها وانفصالها عن الواقع . وما كان من الممكن أن يحدث ذلك لولا تغير مواز فى شخصية الشاه نفسه بوصفه رأس النظام أو النظام كله » .

الرجل الذى ضل طريقه!

● المؤلف : فريدون هوفيدا . . لامع الشاه ولامع الخميني .

يرويها : فريدون هوفيدا

يقدمها : عبد العظيم حماد

الشاهانو الشاه يغار من شعبنا

على أن ذلك التغير لا يسهل فهمه – وإن سهل رصد بداياته وأسبابه المباشرة – دون فهم تطور شخصية الإمبراطور فى مراحلها المتعددة ، ودون الاقتراب من الأفكار والأحلام التى ظل الرجل أسيرا لها طيلة وجوده فوق دست الحكم ، ونقول إن رصد بداية وأسباب التغير الذى طرأ على شخصية الشاه منذ أوائل العقد الماضى أمر ميسور لأنه أعقب الاحتفالات الأسطورية فى عام ١٩٧١ بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الإمبراطورية الفارسية على يد قورش العظيم . وهى الاحتفالات التى توج الشاه فيها نفسه ملكا للملوك وإمبراطورا للفرس .

كذلك يبدو ذلك التغير وثيق الصلة بزيارة الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون الشهيرة لطهران يوم ٣٠ مايو ١٩٧٢ وهى الزيارة التى كرست الشاه حاميا للمصالح الغربية فى المنطقة بعد أن عهد إليه الأمريكيون بمهمة ملء الفراغ الناجم عن انسحاب القوات البريطانية من المنطقة . وبطبيعة الحال جاء ارتفاع أسعار البترول بنسبه ٤٠٪ بعد ذلك بعام واحد ليضيف كثيرا إلى جمعة الأوهام فى رأس الشاهنشاه .

ولقد كتب وقيل الكثير حول احتفالات قورش ، وكان البذخ الذى لا توجد كلمات لوصفه ، والذى اتسمت به هذه الحفلات ، موضعا لانتقاد الجميع داخل إيران وخارجها لا سيما رجال الدين الإيرانيون ومع ذلك فلا مفر من تناول ذلك الموضوع مرة أخرى من زاوية مدلوله النفسى ومضمونه السياسى .

دافع الشاه بحرارة عن احتفالات قورش وقال إنها دليل ملموس على حيوية الأمة الإيرانية بوصفها وارثة مجد الاكاسرة العظام الذين أعطوا البشرية أول إمبراطورية فى التاريخ وإنها أفضل مناسبة للبعث الآرى المنشود . وفى كثير من المبالغة يؤكد الشاه أن ثورته البيضاء تستمد جذورها من الثورة « البيضاء » التى عن طريقها أسس قورش إمبراطوريته فى غضون جيل واحد وبأعلى درجة من التماسك الاجتماعى والتفاف والوحدة الاقتصادية التى أسفرت عن قيام الأمة الفارسية .

وفى حديثه إلى الصحفى الفذى الأشهر كارنجيا أكد الشاه مرة أخرى أن احتفالات قورش كانت بمثابة اكتشاف للروح الآرية (الفارسية) من جديد . هذه الروح التى لم يفقدها الشعب الإيرانى مطلقا رغم النكسات وموجات الاعصار التى تعرض لها .

هكذا يشعر المرء بالرعب حينما يرى الملك المسلم لشعب إيران المسلم يجاهد ليجعل من نفسه امتدادا لقورش وداريا وليربط حاضر إيران بماضيها السابق على الإسلام متغافلا عن عمد ارتباط شعبه الوثيق بالعقيدة الإسلامية . والواقع أن الإشارات المقصودة إلى ماضى إيران قبل الإسلام كانت قد كثرت فى السنوات الأخيرة من حكم الشاه . وكان الغاء التقويم الهجرى – واستبدال تقويم به يبدأ بتأسيس امبراطورية قورش – هو نقطة اللاعودة فى علاقة الشاه بالأغلبة الشيعية فى بلاده .

حقا كان الشاه على ما يبدو يريد إقامة دولة عصرية (أى دولة قومية علمانية) فى إيران ولم

أخذت الثورة تزداد قوة
وراحت سلطة الشاه تتحلل شيئا فشيئا

الرئيس الأمريكى الأسبق جون كيندى

الرئيس الأمريكى الراحل فرانكلين روزفلت

كان الشاه يكرههما فى قرارة نفسه لأنهما عاملاه باستخفاف.

تكن احتفالات قورش سوى مناسبة لإضفاء الشرعية السياسية على حكمه . فضلا عن أن تواضع نسبه دفعه فى كثير من الأحيان إلى المغالاة فى تمجيد نفسه . وتمجيد أسرته إلى حد افتعال نسب أعلى مكانة من الناحية الاجتماعية . وكانت احتفالات قورش تعبيرا من نوع مختلف .. عن الشعور بعقدة النقص هذه . ولكن كان بوسع الشاه أن يضفى على نفسه الشرعية بالاستمرار فى سياسته الإصلاحية . التى جلبت له قدرا كبيرا من التأييد الشعبى وتأييد المثقفين حتى ممن كان ينتمى منهم إلى اليسار .

ثم إن الشاه فى غمرة شعوره بالنشوة قد تجاهل أو ازدرى شعبه مرة أخرى كعادته حين توج نفسه بنفسه ملكا للملوك وامبراطورا للايرانيين بدلا من أن يتسلم التاج من ممثلين منتخبين للشعب .. لقد كانت تلك اللحظة التى اتاحها امبراطور الآريين الجديد لحظة اللقاء مع التاريخ . هى ذروة الانفصال عن الحاضر لأن الملك افتقد فى هذه اللحظة الوسيلة المثلى للقاء مع شعبه . وقد ترتب على هذه الحقيقة الكثير . ولكن أهم ما ترتب عليها أن الشاه ظن أنه اكتسب الشرعية بهذه المظاهر التى كان من شأنها أن تخلب الألباب فى زمن مضى بدلا من اكتسابها عن طريق إضفاء الصبغة الديمقراطية على مؤسسات الحكم لكى يشترك الشعب فى صنع القرار وتشكيل مستقبله .

الدكتور محمد مصدق
كان الشاه يكرهه لأن الشعب يحبه.

من ملك لا يملك إلى حاكم بأمره

رأيت الشاه لأول مرة عام ١٩٤٨ بينما كان يقوم بزيارة رسمية لفرنسا . وكنت وقتها أعمل فى وظيفة دبلوماسية صغيرة فى سفارتنا فى باريس . وبدا لى الشاه فى ذلك الوقت غير واثق من نفسه تعلو وجه أحيانا حمرة الخجل . وكانت تلك الملاحظة فى محلها حيث كان الشاه لا يزال خارجا من تجربة الحرب العالمية الثانية التى أودت بوالده وجاءت به على العرش بأمر الحلفاء بلا حول ولا قوة .

وقد احتاج الشاه الشاب فى ذلك الوقت إلى جهود كبيرة لتحسين صورته أمام شعبه وواتته الفرصة فى مناسبتين : الأولى جلاء القوات الروسية عن اذربيجان تحت وطأة الضغوط الأمريكية والدولية ومن ثم انهيار جمهورية جعفر بشاورى الشيوعية ودخول الشاه على رأس جيشه دخول الفاتحين ذلك الإقليم ١٩٤٧ . والثانية هى محاولة اغتياله الفاشلة عام ١٩٤٩ التى ساهمت فى ترويج أسطورة « شجاعة الشاه التى لا مثيل لها » وتكفل السماء بحمايته دائما .

وعلى أية حال ماكادت إيران تتنفس الصعداء بعد انتهاء الحرب وجلاء الجيوش المتحالفة عن أراضيها حتى واجهتها قضية البترول . ذلك أن امتياز شركة البترول البريطانية التى كانت تستغل آبار البترول الإيرانى كان سينتهى فى عام ١٩٥٠ . وفيما كانت المفاوضات تجرى فى تعثر بالغ بين الحكومة الايرانية والشركة ارتفع صوت زعيم الجبهة الوطنية المعارض فى البرلمان (الدكتور محمد مصدق) يطالب بتأميم البترول ووقف التفاوض مع البريطانيين .

وفى مواجهة تلك العاصفة عين الشاه رجله القوى فى الجيش الجنرال ازهاريا رئيسا للوزراء ولكن صرع برصاص المتطرفين بعد قليل فحل محله رجل القصر حسين علا الذى لم يفلح فى وقف الثورة الكلامية التى سنها المعارضة بتأييد من جانب الشعب مما اضطر الشاه إلى تعيين الدكتور مصدق رئيسا للوزراء رغم مقته الشديد له ، وزاد من كراهية الشاه لمصدق تزايد شعبية الأخير .

وبطبيعة الحال يعرف الجميع تفاصيل الأزمة بين الشاه ومصدق التى كان سببها الحقيقى هو رغبة كل منهما فى الانفراد بالأمور مع عدم استعداد أى منهما للخضوع للآخر . وكما هو معروف انتهى حكم مصدق بانقلاب عسكرى دبره الأمريكيون ، وأوقع ذلك الشاه مرة أخرى فى قبضة الأمريكيين واستلزم التحرر من تلك القبضة من جانب الشاه خمسة عشر عاما على الأقل .

فتحت وطأة القبضة الأمريكية قبل الشاه على مضض استمرار الجنرال فضل الله زاهيدى قائد الانقلاب رئيسا للوزراء رغم شخصيته القوية النزاعة إلى السيطرة . وبعد أن اضطر زاهيدى للاستقالة لأسباب صحية عين الشاه أحد رجاله وهو الدكتور إقبال الذى كان يحلو له أن يصف نفسه بالعبد المستعد للتضحية بحياته والذى كان الشعب يتندر عليه قائلا إنه العبد ذو القرط فى أذنه . ولكن الأمريكيين تدخلوا مرة أخرى وفرضوا عليه تعيين على أمينى السفير الإيرانى فى واشنطن رئيسا للوزراء .

وجاء أمينى وبدأ سياسته الإصلاحية فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى . ولكن الشاه التواق إلى الاستبداد بالأمور والذى بدأ يشعر بالغيرة من نجاح أمينى أخذ يتربص به حتى أقاله وأحل محله أسد الله علام أحد اتباعه .. وكان إبعاد أمينى وتعيين علام هما بداية انفراد الشاه بالحكم بعد نجاحه فى تخفيف القبضة الأمريكية عليه .

على أن انفراد الشاه بالحكم لم يكن شراكله فى بداية الأمر ، إذ ما لبث الرجل أن بدأ سياسة اصلاحية واسعة النطاق شرحنا تفاصيلها فيما سبق . وفى ذلك الوقت وقعت اضطرابات ١٩٦٣ التى تزعمها الخمينى وتم إخمادها بقسوة بالغة فأسفرت عن نفى الخمينى إلى الخارج . وعن حركة تطهير واسعة داخل الجيش والأجهزة الحكومية ، واتخذ من الإجراءات كل ما يضمن له كبت الرأى الآخر وتكميم الأفواه خاصة أفواه المثقفين . ومن هذه اللحظة أصبح الشاه هو الحاكم غير المنازع لإيران ورغم استبداده المطلق فإن معظم قطاعات الشعب وبينهم المثقفون اليساريون الذين أرهقوا من المطاردة والاضطهاد لم تجد غضاضة فى تأييد برامجه الإصلاحية .. لأنه على حد قولهم أصبح ملكا مصلحا مستبرا رغم أنه مستبد .

والحق أن تلك كانت تجربة واعدة . ومن واقع خبرتى المباشرة به فى تلك الفترة أنى وجدته فى مقابلاته معى منفتح الذهن للمناقشة متحمسا للإصلاح . وكان دائما يردد أن علينا جميعا أن ننسى الماضى وأن نتكاتف من أجل انتشال إيران من هوة التخلف . ولقد قال فى ذات مرة إنه ينوى أن يذهب فى إصلاحاته الاجتماعية إلى أبعد

من اليسار . كذلك بدأ النظام فى ذلك الوقت سياسة حذرة للحوار مع المعارضة بما فيها تمثلو اليسار .

ومع ذلك فإن نقاط الضعف الكامنة فى شخصية الشاه كانت تطفو الفينة بين الفينة . وكان طفوها يعرقل المسيرة ويدمر كثيرا من الآثار الطيبة للسلوك السابق شرحه . لقد كان الشاه مثلا يشعر بالغيرة التى تصل إلى حد الحقد . من نجاح الآخرين . وكان يفر بشدة من أية شخصية تعتد بنفسها . وكانت الغيرة هى السبب القوى وراء القضاء على أمينى من رئاسة الحكومة وأذكر ذات مرة أثناء التزيب لعقد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان فى طهران سنة ١٩٦٨ وكنت أشرف على هذه التزيبات أنى اقترحت عليه اسم نصر الله انتظام ليرأس المؤتمر . ولكنه بعد أن أعطى موافقته الفورية عاد وسحبها معللا ذلك بأن انتظام لم يقبل يده أثناء زيارته لنيويورك فيما كان الأخير يرأس دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٠ مفترضا أن رئاسته للجمعية العامة تعطيه من واجب تقبيل يد الشاه على حد تعبيره !

ووصل تحكم عقدة الغيرة فيه إلى حد أنه كان يغار من شعبية زوجته الامبراطورة فرح . وذات مرة عقب إلقاء الامبراطورة خطاب أحرز إعجابا كبيرا لدى الشعب حول حرية التعبير استدعى الشاه أمعى أمير عباس هويدا رئيس وزرائه وطلب إليه أن يبلغ الشاهبانو أنها لا تستطع أن تتحدث كذلك » .

وكان الرجل كذلك يكره كل من يوجه إليه نقدا حتى لو كان من خارج إيران . لذلك كان لا يطيق سماع اسم عبد الناصر . وكان فى قرارة نفسه يكره روزفلت وكنيدى . بل إن كراهيته المثنية أبدا لمصدق جعلته مثلا يحتفظ باسم وزارة الحربية بدلا من وزارة الدفاع لا لشىء إلا لأن مصدق هو أول من استحدث اسم وزارة الدفاع .

وكل من يعرف الشاه عن قرب يؤكد أن شخصيته حافلة بالتناقضات . ويشترك فى هذا الرأى دين راسك وزير الخارجية الأمريكى الأسبق . وكذلك هنرى كيسنجر ووليام سايون وزيرا الخارجية والخزانة الأمريكية السابقان وسيتيا هولمز زوجة السفير الأمريكى السابق فى طهران وبنشارد هولمز .

ومن أبرز صفات الشاه التى أنتجت آثارا غير حميدة غروره القاتل . وهذا الغرور هو الذى جيب إليه الخلق والمداهنة إلى حد أنه كان يغضب ممن ينبهه إلى الحقيقة غير الموافقة لهواه . من ذلك أن عمى الذى كان صديقا مقربا له فى وقت ما رافقه ذات مرة فى زيارة تفقدية لأحد المستشفيات . ولدى خروجها نسى عمى غطاء رأسه وعاد لاستعادته فوجد أن النظام الدقيق والمرضى الذى كان يوحى بالرعاية الكاملة كل ذلك كان مفتعلا وكان رد الشاه حينما أخبره عمى بالحقيقة « أف . . لا تضايقنى . . وانس كل شىء » .

الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لم يكن الشاه يطيق سماع اسمه .

ورغم أن الشاه ورث عن أبيه كثيرا من الصفات مثل القسوة المتناهية والنزوع فإنه لم يرث عن أبيه كراهيته للمظاهر . فيما هو مأثور عن الشاه الأكبر أنه وضع حاكما من حكام الأقاليم فى السجن لأن هذا الحاكم نقل أشجارا بالغة الحجم إلى الطريق الذى سيمر منه الشاه ليثبت له أن امتثال لأوامره بتشجير كافة الطرقات . وكان رضا شاه قد كشف هذه الخديعة حينما تعمد النزول ليستد ظهره إلى إحدى هذه الأشجار .

ومما ورثه الشاهنشاه الخلوع عن والده ضيقه بالمعارضة وقسوته فى اجتثادها وحبه الخارف للنظام والعمل الشاق والإشراف على الجيش ولكن قسوته وترفعه عن الآخرين أضفيا على العرش رهبة مقيتة وكآبة منفرة . ولم لاوقد فاق عدد قتلاه عدد قتل أبيه بكثير ؟ ! .

التحول الكبير

غير أن أخطر نقاط الضعف فى شخصية الشاه كانت علاقته بأسرته وبأصدقائه . وقد مر بنا الكثير من صور فساد وإفساد الأمراء والأميرات ورجال البلاط التى وصلت إلى حد انتهاك المحارم الإسلامية مثل أندية القمار وتجارة المخدرات . وكانت تلك العلاقات لا تتلاءم مع الصورة التى حاول الشاه أن يرسمها لنفسه كأب لجميع الإيرانيين . حقا كان الشاه مغرما بفكرة « السلطة الأبوية » . ولكنه لم يكن أبا عادلا بين جميع أبنائه فضلا عن أن الفكرة ذاتها تعد من نقاط ضعفه لأن الشعوب لا تحب أن تعامل بمبدأ الثواب والعقاب مثل الأطفال .

وقد خلقت هذه العقد النفسية ، وأوهام العظمة المسيطرة على الشاه ، وإيمانه بالعصمة الإلهية له من الأخطار إلى جانب أفكاره السياسية تتفاعل فيما بينها ومع العوامل السياسية الطارئة لتحدث التغير الكبير الذى جعل الرجل يضل طريقه فى النهاية .

أما تلك العوامل السياسية الطارئة فقد ذكرناها آنفا . وأما معالم ذلك التغير فقد تجلت فى صرامته الشديدة فى اتخاذ القرار وانفصاله الواضح عن الواقع ، وأخيرا فى فقدانه للإحساس بالعوامل الإنسانية فى السياسة والحكم .

وقد يفسر البعض هذا التحول بأنه وليد إصابة الشاه بتصلب الشرايين ، أو بأنه وليد السلطة . ولكن نتائجه كانت مخيفة بالإجماع . ومن يقرأ أحاديث الرجل إلى الصحف والإذاعات بعد ١٩٧٤ يقف شعر رأسه رعبا . إذ كيف يعترف ملك مسئول علنا . بأنه استبدل بالتعذيب اليدى التعذيب النفسى فى معاملة الخصوم السياسيين ، ولماذا هذه الملاحظات القاسية المهينة عن رجال الدين وعن النساء الإيرانيات ؟ وكيف يسقط الرأى العام تماما من حسابه حين يصف جميع معارضيه ابتداء من مصدق إلى الخمينى بأنهم عملاء وخونة ؟ وكيف يمكن تفسير حرصه على تشويه وتحقير كل من عداه .

هل التفسير يكمن فى مرض انفصام الشخصية ؟ أو فى أوهام العظمة ؟ على أية حال لقد أدى به هذا التحول إلى الانفصال تماما عن الواقع . ودعم هذا الانفصال كراهيته للحديث عن السلبيات مما حدا بمعاونيه إلى حجب الحقائق غير الموافقة لهواه عنه .

واستطرادا لهذه الأوهام بات يسيطر عليه وهم أن إيران سوف تصبح فى غضون عشر سنوات لا أكثر خامسة قوة صناعية وثالثة قوة عسكرية فى العالم . وكان ذلك فى ذاته شديد الخطورة على البلاد التى عجز اقتصادها عن الحفاظ على توازنه بسبب طموحات الشاه المجنونة .

وفى السنوات الأخيرة استعاض الشاه الكلمات بالأفعال . فالفساد قد انتهى لأنه يقول إن الفساد انتهى وإيران ستصبح قوة عظمى لأنه لا يريد لها مكانا بين دول العالم الثالث ولا شىء اسمه حقوق الإنسان فى إيران للمخربين والإرهابيين واللصوص والخونة الذين هم كل خصومه السياسيين .

هكذا فاجأته الثورة وبينه وبين الواقع ستار حديدى حال بينه وبين لقاء المعارضة المعتدلة فى منتصف الطريق . وظل الرجل منشغلا بأوهامه حتى أصبح فى الشهور الثمانية الأخيرة مشلولا عن الإبان بأى عمل . وكانت الشاهبانو هى التى تتولى مفاوضات تشكيل حكومة شاهبور بختيار . آخر حكومات الشاه قبل رحيله من إيران فى اجازة مزعومة . .

لقد كانت الأيام الأخيرة فى حياة الشاه فى إيران دليلا حيا على أن الشاه أفقد النظام جذوره فى التربة الإيرانية . ففى تلك الأيام كان حدا المعادلة السياسية هما « سلطة الشاه تتحلل شيئا فشيئا ، وقوة الثورة تزداد شيئا فشيئا لتحل محلها » حتى حدث السقوط . [هذا السقوط وكيف حدث ؟ هو موضوع الحلقة التالية] .

□